ثوب لمحمود ...

قصة بقلم علي بدور

منذ اسبوع وانا احاول شراء ثوب للطفل . ولكنني لم استطع . انني انسان كثير الاعمال وانسى كثيرا .. اذ رغم مروري الدائم بباعة ثياب الاطفال ورؤيتي النساء والرجال وفي صحبتهم اطفالهم وهم يدخلون هذه المحلات المنتشرة في جادة الصالحية ، فانني في مثل هذا الوقت اكون على موعد هام بحيث لا استطيع ان افرط ولو بخمس دقائق في شراء ذلك الثوب ، انني عندما ارى النسوة والرجال مزدحمين في محلات بيع الالبسة اتذكر « ماذا لو دخلت ؟ » ولكنني لا ارد على تساؤلي هذا ، بل اتابع طريقي لموعد هام من مواعيد عملي المتشعب .

فاذا ما انهيت اعمالي واصبحت متفرغا لاي عمل اخر ، ينتابني تعب يقودني مباشرة الى المنزل للراحة .. او اصاب بنسيان فلا اعود اذكر شيئا عن قضية الثوب .. فاذا تذكرتها رغم هذا كله وحاولت ان اسعى لشرائه .. وجدت باعة الالبسة قد اقفلوا محلاتهم ، فاؤجل ذلك كله الى يوم اخر .. او فرصة سانحة .

في الفترات التي كنت افكر فيها في الثوب .. ومحمود ، تخطر لي الوان كثيرة .. فانا حتى الان لم افكر في لون معين ، انني اريد ان اختار لونا معينا حتى اذا دخلت المحل لم اتاخر كثيرا .. انني عندما افكر في اللون الاحمر مثلا تخطر لي بشرة محمود السمراء وعيناه الخضراوان ، ووجهه الضاحك ابدا . حقا ان اللون الاحمر لا يناسب البشرة السمراء .. حتى ولا الحنطية .. ان اللون الابيض انسب واكثر جمالا .. ولكنني عندما اتذكر شقاوته وحركاته وعبثه يخيل الي ان اللون الابيض سيتسخ سريعا .. ولن يلبث محمود ان يتقلب عليه وهو يزحف هنا او هناك من ارض الغرفة او فناء المنزل .. ان محمود امضى في الدنيا قرابة عام ولا يزال ، واخذ يحاول الزحف والحركة .. ومهما يكن فان اللون ليس مهما .. ان اي لون يناسب بشرة محمود ولون عينيه سيكون جميلا لثوب صوفي يدفيء محمود مع حلول الشتاء .

ها قد مضى اسبوع كما قلت .. ولم استطع شراء هذا الثوب الذي اخذت افكر فيه في اوقات عملي وفترات راحتي .. ان محمود لا يغيب عن خاطري .. وصورته ماثلة في ذهني وهو ممدد في حجر امه تدلله او ترضعه وهو يضحك او يبتسم ويتحرك بعنف داخل قماطه يريد اجتيازه دون ان يدري الى اين ؟ ..

انني اتذكره كثيرا .. الا اني في بعض الفترات لا اعود اتذكر شيئا .. فانسى محمود وامه وانسى كل شيء عنه .. وحتى موضوع الثوب يصبح كالطيف .. ان العمل يستغرق كل وقتي .. اداوم قبل الظهر ومساء .. وفي اكثر ايام العطل .. ان الاضابير التي ترتفع فوقي كلما حسبت انها اشرفت على النفاد تسبب لي هموما كثيرة ، فتغطي الافق الماثل امامي فلا اعود ابصر شيئا .. حتى نفسي لا اعود احس بها في مرآته الكبيرة اللامعة .. ولكنني عندما اخرج من العمل مساء وانا في طريقي الى البيت احس بلذع البرد يخترق جسمي فاتقيه بالمعطف .. عندها اتذكر محمود بسهولة وتمر ذكرى الثوب بيسر كما تمر الماء في البلعوم .. وافكر انه هو الان يبرد حتما .. وان الثوب الصوفي لا بد من ان يحمل اليه الدفء والسعادة والى امه الامل والرجاء ولكنني عندما احدث نفسي بمثل هذا الكلام الصامت لا اجد مكانا واحدا مستعدا لبيع اي ثوب صوفي في مثل هذه الساعة المتاخرة من الليل ...

وفي الطريق الى المنزل ... افكر في محمود ... انه طفل صغير لم يبلغ العام بعد كما قلت .. وهو لم يطلب ذلك الثوب .. وامه لم تذكرني به .. انها تركتني احس بعفوية بمدى حاجة محمود الطفل لهذا الثوب .. ليس مهما ان يطلب الانسان شيئا .. يكفي ان تطلبه الظروف المحيطة به ليغدو حاجة اساسية لا تستقيم الحياة بدونها .

انها المرة الاولى في حياتي التي افكر فيها بشراء ثوب لطفل صغير .. انني انسان كثير الهموم كثير الاعمال رغم انها لا تعود بدخل كبير علي .. والى الان لم اتزوج .. انني انسان عازب لم الق حتى الان الفتاة التي تصلح لي زوجة وتشاركني هي الاعتقاد بانني اصلح لها زوجا .. وكل ما هنالك انني تعرفت على محمود وامه مصادفة .. ومن يومها احسست ان محمود اصبح قريبا من نفسي .. وانه بابتسامته المطمئنة استطاع ان يتغلغل الى قلبي وان ياسره وان يحتل جزءا كبيرا من اهتمامي .. وقد راق لي التفكير في هذا الطفل .. ان التفكير في الاطفال يريح الاعصاب ويغسل هموم النفس والقلب .. وهم يجعلون الحياة اكثر جمالا لبراءتهم وانسانيتهم .. لعلي وانا وحيد ، احس بمثل هذا التعاطف الروحي مع طفل .. طفل صغير يبكي ويضحك دون اي سبب ودون مواعيد .. روحه صغيرة واجنحته طرية ، مضاء من الداخل ، غير معقد ، عفوي ، ابتسامته تسبق دموعه او تختمها ، رائحته عبقة مثل رائحة الحليب المغلي على النار ..

رغم كل شيء .. فانا لا احس بمحمود احساسا عفويا فحسب .. بل انني افكر فيه ايضا .. واعجب احيانا للصدف التي تجعل الانسان يحب طفلا يشبهه في امور كثيرة .. قد يكون هذا مدعاة للضحك لاول وهلة .. ثم للابتسام الهادىء المعبر .. ولكن مع مضي الوقت يصبح هذا التشابه مدعاة للتفكير والاهتمام .. ان الحياة ذات رقعة واسعة والكائنات التي تدب عليها جد صغيرة .. ولكنها كثيرا ما تتلاقى على ممرات مطروقة ، ويكون بعضها شبيها ببعضها الاخر في امور كثيرة ..

نسيت ان اقول اني انا ايضا ادعى محمود .. حقا ان الاسماء تتشابه وقد يتشابه اصحابها ولكن لكل اسم صفة خاصة لا يشارك فيها احد .. ولكنني عندما افكر في محمود الطفل .. اتذكر محمود الكبير الشاب .. اتذكر نفسي .. بل انسى احيانا نفسي واجتاز الاعوام الثلاثين عائدا الى الخلف .. ان الانسان يستطيع بسرعة ان يعود الى الخلف اذا كان في طاقته ان يلقي عنه اردية السنين .. فيعود طفلا صغيرا كما تعود الشجرة الوارفة غصنا مورقا ، او الثمرة زهرة فواحة بالاريج .. لعله من الطرافة ان يتصور الانسان نفسه طفلا في حضن امه عندما يريد ان يقارن نفسه بمحمود الطفل .. طبعا ان الوضع يختلف .. فانا ولدت في منزل كبير .. ووالدي كان ميسورا .. وكان يستطيع ان يغمرني بالمزيد من الالبسة الصوفية .. صحيح ان الثروة تبددت وشببت وانا اشكو من وضعي المادي .. الا انني استطعت ان اتعلم من الاخرين وان احاول تعليم نفسي .. وحصلت على بعض الاستقرار بحصولي على وظيفة .. قد يكون العمل فيها كثيرا ومتعبا .. ولكنها تطعم صاحبها خبزا في كل يوم ثلاث مرات على الاقل .. ولكنني بعد ان انتهي من هذا السرد الذي يفصلني عن محمود عندما كنت في مثل سنه .. تبدأ الامور الاخرى تتقارب .. بل تتوحد .. بحيث تصبح كلها بلا قيمة ، عندما اقف قليلا وانا افكر في محمود الصغير واتصور متسائلا : « ماذا لو كنت انا هذا الطفل بالذات .. وكانت امي التي اعرفها جيدا هي ام محمود اليوم .. التي القاها تقتعد جانبا من الرصيف وظهرها مسند الى الحائط وانا في حضنها ، تسأل المارة بعينيها ان يعطوها شيئا وانا لاه عن ذلك كله بضحكي وابتسامي ... عيناي تبرقان بضوء ساطع كما تبرق عينا محمود الخضراوان ، وتضيفان الى شمس النهار التي تضيء جدران الابنية النظيفة الفخمة كثيرا من براءة الحياة وجمالها .. « طبعا ان كل شيء ممكن .. ومن السهل

من خماسيات الشيخ

- ١ -

الليل يعرينا ، حتى آخر ثوب ..
لكن بطولتنا أن نبقى رغم العري الفاضح مستورين ..
نهتف في وجه الآتين فخورين ..
ليس الماجد من يستره الثوب المجدول من الصوف ..
ان الماجد من يستره الثوب الشفاف ..

- ٢ -

ان تطعنني هذا شأنك ..
تشرب مني ، حتى آخر قطرة دم ، هذا جائز ..
لكن غير الجائز والمعقول ..
هو أن تخفي عني الخنجر ..
خلف ستار البسمة والاحضان ..

- ٣ -

في زمن ، كزماني هذا ، يكثر فيه الدجالون ..
يلبس فيه اللص ثياب القاضي ..
يسرق فيه الفاسق ثوب الواعظ ..
من ذا يأخذ عمري كله ..
كي يرشدني : أين الحق ، وأين الباطل ؟

- ٤ -

انظر ، هذا طفل أشيب ..
لا تتعجب ..
في زمن ينضح بالهول ..
مثل زمانك هذا ، يصبح ما يدهشنا حقا ..
هو أن يبقى دون مشيب طفل أوحد ..

- ٥ -

لما خفضوا الصوت ، تباهرت الانفاس ..
لا يفزعني مثل الصوت الهامس ..
قد يكمن في جحر الصوت الهامس أفعى ..
وتكون الكلمات نيوبا ، تنفث سما ..
تنفثه ، في صلب الحق ..

- ٦ -

في زمن ، أمهر من فيه القردة واللبلاب ..
تشمخ فيه شجيرات العليق
نفض كتفك ..
من يدرينا ؟ عل هناك على كتفيك ..
يتسلق انسان ما ..

القاهرة — **عبد المنعم عواد يوسف**

جدا اذا لم يكن الانسان في ماضيه مثل هذا الطفل .. فانه من المحتمل ان يكون احد اطفاله في المستقبل على شاكلته .. كانت مثل هذه الافكار المتعبة تراود فكري كثيرا .. ثم لا تلبث ان تتخلص من نطاقها الضيق .. لتصبح معبرة عن كل طفل يعيش كما يعيش محمود سواء عرفته ام لم اعرفه ..

في كل صباح وانا ذاهب الى العمل .. ابصرها من بعيد .. انها والدة الطفل محمود .. فاذا اقتربت اكثر لمحت شيئا في حضنها ملفوفا في خرق ممزقة .. حتى اذا ما حاذيتها لاح لي وجه محمود وهو يضحك .. انه وجه طفل صغير .. بريء ، بشرته ناعمة رقيقة ، عيناه خضراوان ضاحكتان ، لعله وهو لا يعرف شيئا من دنياه .. فهو لذلك طروب سعيد ..

وبسرعة اكون قد القيت في حضنها بعض القروش .. ان محمود لا يعرف شيئا من هذا كله .. لعله اذا كبر قد يعرف .. وقد يعتاد .. وينتابني شعور بالراحة بعد الشعور بالقلق .. لقد اعتدت رؤية محمود كل يوم صباحا .. وكانت رؤيته تبعث في نفسي شعورا بالطمأنينة وتذكرني في كل مرة اراه فيها أن علي شراء ثوب صوفي لمحمود .. ثوب مهما كان لونه فهذا لا يهم .. ولكن يجب ان اشتري له ذلك الثوب ..

انني لا استطيع ان اقف عند محمود كثيرا .. ان منظره وهو في حجر امه في هذا الشتاء القارس وهو بما عليه من صفاء وبراءة ، يبعث في عذابا لا تظهر علاماته .. يطل علي من اعماق نفسي .. يعذبني .. يضعني مسؤولا عن هذا الطفل . ليس مهما ان اكون سبب تعاسته .. ولكنني ما دمت اشعر بها واتعذب فانا مسؤول ..

كنت بين اليوم واليوم اقف هنيهة احدث الام ، اسألها عنها وعن طفلها .. وكان الهدوء في وجه الام يحيرني اول الامر .. ثم يشدني اليه .. ان الانسان عندما تناله مأساة ما ، يكتسي وجهه بطلاء غريب ، طلاء هادىء اللون يعبر عن حزن مكتوم ، تعكس عيناه بعض معانيه في نفسه وفي نفوس الاخرين .. وكان وجه الام الصامت الحزين ، الشاب رغم الهموم ، بعينيه الخضراوين كعيني محمود وانفه الدقيق كأنفه ، وابتسامة تنشق من خلال الوجه المكدود عن اسنان بيض ، ومحمود في الحجر يناغي اشبه بقطعة من الحياة تنبض وتتنفس وتحس ، ولكنها معزولة عن الالام والافراح ، على الهامش من الوجود الانساني ... الا انها لصفائها وبراءتها وطفولة ابنها ، بمثابة القلب من هذا الوجود ، بقوته ولينه ، وبكل ما فيه من اسباب النقمة والغفران ..

اليوم عندما مررت صباحا .. كان محمود نائما على ثديها دون ان يرضع ، والام قد غطت وجهه وجانبا من ثديها بمنديل .. قلت لها :

ـ كيف محمود اليوم .. ؟ فاجابتني بهدوء تشوبه حيرة وقلق :

ـ انه مريض .. لقد عرضته على الطبيب .. فحماه على الحليب واللبن .. معه التهاب في الامعاء ! ..

ادركت وهي تحدثني عنه ان البرد لم يبق حول محمود .. بل اصبح في داخله .. وفكرت « لقد آن الاوان اذن هذه المرة » ... اجبتها وانا احاول السير من جديد :

ـ بسيطة ان شاء الله .. انه بحاجة الى تدفئة ..

وتمتمت الام بكلمات غير مسموعة .. لانني كنت قد اجتزتها متابعا طريقي الى مقر عملي .. دون ان اقف عن التفكير في محمود لحظة واحدة ..

حقا انا انسان كثير الاعمال .. كثير الهموم .. وحيد لم اتزوج بعد .. اسمي محمود .. وانسى كثيرا ولكنني لن انسى شراء ثوب صوفي لمحمود .. هذه المرة ..

كنت اقترب من مكان العمل ، فيما كانت الشمس الشتائية تضيء اعالي الابنية الفخمة ، والطقس الصباحي البارد يتطلب .. ارتداء المزيد من الالبسة ..

وفيما كنت ادخل مقر عملي .. ابصرت امامي فجأة .. طيف محمود الطفل بوجهه المريض الذي لا يخلو من بعض الابتسام .. كان وجهه مرتسما بحنان في عيني .. خفيفا كالظلال المؤنسة .. واحسست انه يكلمني همسا ومناغاة : ـ الدنيا برد .. الدنيا برد ..

حلب — **علي بدور**